الحلقة التاسعة والعشرون

(بيروت.. قصر علي باشا.. شهربان وعثمان ومصطفى في الردهـة.. سليمان وعلي يلعبان سويا في الحديقة بالكرة)
شهربان: حدثني خالد عن الأوضاع في تركيا فهو لا ينوي العودة الـى هناك.. ولكن عمتكم جلنار لا تريد البقاء في لبنـان، فهنـاك دار أبيهـا وأختها أليسا، وشهنازادا المتزوجة بالأخ الصغير لعبد الحميـد.. وهـي تقول بأن الحاكم ظل الله على الأرض.. وعليهم أن يطيعـوه فـي كـل أحواله، فلعله يرى غير الذي يراه خالد من تعقد الأمور.. ولكن وأنا أكثر خبرة منها، أرى أن الطريق الذي يتبعه عبد الحميد لن يكون في صـالح تركيا ولا الولايات، وأن أزمة ما ستحدث هناك لا أعـرف نتائجهـا ولا يمكن لي أن أتنبأ بتأثيرها علينا.. ان والدكم كان يعارض هذا التوجه فنفاه عبد العزيزالى حلب كما تذكرون.. ولا أريد أن يتكرر الأمـر بالنـسبة اليكم.. فتكونوا مهددين وأنا هنا وحدي في قلق دائم علـيكم.. أريـد أن يجتمع شملنا في مكان واحد ريثما تنجلي الأمور..
عثمان: ودراستنا، ومستقبلنا؟ ماذا نفعل هنا في هذه البلاد ونحن لا نتقن العربية لننتسب الى ثانوياتها، ولا الإنجليزية لننتسب الى جامعتهـا.. أم أنك راغبة في بقائنا معك لتزيني بنا قصرك على حساب مـستقبلنا وقـد أصبحت لك أسرة فيه غير أسرتنا؟
شهربان: لا تتحدث بهذه الطريقة ياعثمان، وتظلم رجلا يرعاكم بحنـان الأب وعطفه، ويقلقه مصيركم كما يقلقني.. انه لا يكسب بزواجه منـي شيئا وأنا أكسب منه كل شيئ.. حمايته لي ولمصالحي ولأولادي.. هـل تلومه على حبه لي؟ لقد تخلى عن منصب وزير فـي ماليـة طـرابلس الغرب من أجلي.. ان كل ما يجنيه في هذا البلد هو من عـرق جبينـه وجهده وسهر الليالي في حله لمشاكل الناس الذين يوكلونه في أمـورهم ويعطيني ما يجنيه لأتدبر أمري..
عثمان: ألا تنفقين من المال الذي تركه لك جدي؟
شهربان: لم يترك لي إلا هذا القصر الذي سنعيش كلنا فيه.. أما الراتب التقاعدي فلا يصرف حتى للعاملين في الفوج بسبب الأزمة المالية التـي تعاني منها تركيا.. ولما عرضت على محمود أن يبيع لي صيغتي رفض ذلك، وتولى هو المسؤولية عن كل شيء ولم ينقص لي ترفي الذي أعيش فيه.. لقد أقنعت جلنار في البقاء في ضيافتي حتى يجد خالد له عمـلا..

فخالد انسان وفي يشبه محمود في صفاته.. لقد بقي عشرة أعوام لا يفكر بالزواج بعد وفاة أخت محمود فريدة التي كانت حبيبته وزوجته في فترة مرضها الذي لم يمهلها طويلا.. قلت لجلنار بأن جدران القصور لايمكن لها أن تعوضها عن حب رجل كخالد.. ولا يجدر بها أن تتخلى عنه لأنه بلا عمل اليوم، وتقيس ظروفها بظروف أختها شاهنزادا.. فمـا يـدريها بأنها لا تعيش في تعاسة في جو مؤامرات القصر المحموم؟..

(2) (منزل الأسير.. الأسيرعلى طاولته يعد محاضرة اليوم التـالي في الجامعة.. يسمع وقع حوافر الخيل تقف عند بابه.. ينظـر من النافذة.. يرى شابا بلباس إفرنجي، ينزل من العربة وينقـد العربجي أجره فيناوله الحقيبتان.. يطرق الزائر على البـاب.. الأسير (لنفسه) لعله غريب أخطأ العنوان.. يفتح الباب فاذا بـه وجها لوجه أمام حسن.. يعانقه فرحا بلقائه)

الأسير: أهي زيارة أم عودة؟

حسن: بل عودة، لقد غيرت فكري في البقاء في مـصر.. زودنـي أخي محمد بمبلغ من المال لأفتتح عيادة في بيروت..

الأسير: بارك الله فيك يا حسن! ها هو إبن يحقق لي حلمي فـي أن يعود ويصبح طبيبا في بلده.. كيف كان نجاحك؟

حسن: بامتياز.. تذكر أنني منذ صغري كنت أهتم بالنباتات الطبيـة، ولقد اكتشفت أنواعا منها في تركيا وفي لبنان وفـي مـصر وسـينا، وأجريت عليها التجارب بنفسي.. وألفـت كتابـا بهـذا الخـصوص أوضحت فيه المنافع التي يحصل عليها المريض من كل نـوع فـي معالجة الأمراض المختلفة التي يصاب بها.. ان الكتاب مخطوط لـم أطبعه بعد..

الأسير: أعطنيه فأطبعه لك في مركز لسان الحال.. ولكـن بالنـسبة للأمراض التي يصاب بها الإنسان، والتي تحتاج الى جراحة.. هـل أنت جراح؟

حسن: كلا، ان اختصاصي هو في الأمراض الداخلية العامـة التـي تصيب الإنسان في مختلف الأعمار.. تشخيصها وعلاجها..

الأسير: سأجد لك عملا في المدرسة الطبية التي أسسها فانديك، ومن حسن حظك أنه عاد من أميركا، ولن يرفض لي طلبا..

حسن: سنتحدث في هذا فيما بعد.. أخبرني عن أحوالكم جميعا.. مـن ولد، ومن تزوج ومن...؟

الأسير: لقد ولد في الأسرة بنت لمحمود سماها باكيزا، وولد في نفس الوقت صبي من زوجتي فاطمة سميناه عبد الرحمن.. أما مـصطفى فابنته حنيفة خطبت لابن صديق له مهندس، وهي تتجهـز لعرسـها، وأما ثريا فهي راغبة في استئناف دراستها، وسليمى دخلت هذا العـام المدرسة الإبتدائية.. وهي ونجوى رفيقتا علي ابن شهربان..

حسن: وأمي؟ كيف صحتها؟

الأسير: صحتها ممتازة بسبب شربها الدائم لعصير البرتقال.. تصنع منه المربى، ومن قشر الكباد الحلوى اللذيذة، لقد زودتني من العصير المركز ومن المربى والكباد في الأسبوع الماضـي وسـآتيك منـه، وأعمل الشاي..

حسن: لا تغلّب نفسك.. سننزل الى المطعم ونتعشى معا.. لم تخبرني عن الباقي.. كيف انسجام أمي مع فاطمة؟

الأسير: انهما سمن على عسل.. خصوصا بعد ولادة فاطمة لفريدة.. هي التي قامت برعايتها.. وبعد أن ولد عبد الرحمن، أصبحت مشغولة به أيضا، ولا تقوم أمه الاّ بالإرضاع..

حسن: وكيف حال محمود وشهربان؟

الأسير: في انسجام تام.. ان بيته يغص اليوم بأبناء شهربان الثلاثـة الذين انضموا الى أمهم بعد وفاة جدتهم، وفي جناح الـضيوف ينـزل خالد وزوجته جلنار وهي قريبة شهربان، أخـت المرحـوم الأميـر مراد.. ناهيك عن الجواري الثلاثة والسائقين والطباخ..

حسن: ماهي أعمار أبناء شهربان؟

الأسير: أكبر أبنائها عثمان في الخامسة عشرة ويليه مصطفي أصغر بعامين ثم سليمان في الحادية عشرة.. وأخيرا علي الذي عرفته طفلا صغيرا دخل هذا العام المدرسة الإبتدائية.. حين زرتهم وجدتها قلقـة بشأن دراستهم، فهم لا يعرفون الا القليل من اللغة العربية، وعليهم أن يدرسوا دراسة خاصة حتى ينالوا من الثقافة ما ينالـه أقـرانهم فـي استنبول.. ان عثمان ومصطفى يرغبان في دراسة الطب ولا يمـيلان لدخول الكلية العسكرية كما فعل والدهما.. وخالد يدرسهما العربية من الترجمات التي تقوم بها الكلية الطبية عن الكتب الإنجليزيـة لفانـديك والدكتور جورج بوست.. ليست هناك ترجمات وافية في اللغة العربية في مدرسة الطب، والطلاب ينسخون الترجمات في دفاترهم إعـدادا لطباعتها فتصبح منهجا دراسيا لمن يليهم..

حسن: أنا جئت بالكتب التي كنت أدرسها في مصر باللغة الإنجليزيـة ويمكنني أن أترجم منها محاضراتي وأضعها تحت تصرف المدرسـة لطباعتها..

الأسير: (مغتبطا) سأذهب واياك في الغد لزيارة فانـديك.. سـيجدك الرجل المناسب للقيام بعدة نشاطات في الكلية الناشئة..

(3) (قصر علي باشا.. شهربان وعثمان ومصطفى في الردهـة.. سليمان وعلي يلعبان الكرة في الحديقة)

شهربان: ان والد محمود يدرس اللغة العربية في الجامعة الأمريكية ويعرف أساتذة الطب فيها، ولهم كتب عديدة فـي الطـب الجراحـي وأصول التشريح فيه مئات من الرسوم وصور أعضاء الجسم، وكتاب في الباثالوجيا الداخلية التي تبحث في مبادئ الطب البشري النظـري والعملي.. وهذه الكتب مكتوبة بالإنجليزية ولكنها تترجم أولا بـأول الى العربية.. لقد أهدانا الشيخ هذه الكتـب وأرسـلها مـع محمـود لتضطلعوا عليها.. ولكن هناك خبر أهم هو عودة أخي محمـود مـن مصر، وهو طبيب درس في الكلية الأمريكية، وعاد ومعه كتبه التـي درس فيها هناك.. وقد عين كطبيب مساعد لمؤسس المدرسة الطبيـة فانديك.. والآن عليكما أن تختارا، إما دراسة اللغة الانجليزية فتفهمـا محتوى الكتب، أو العربية لتفهما ترجمتها..

عثمان ومصطفى: نفضل دراسة الترجمة في اللغة العربية..

شهربان: بما أن خالد قرر البقاء في لبنان، فانـه سيدرسـكم اللغـة العربية العلمية من هذه الترجمات فتنقلـون المفـردات الـى اللغـة التركية.. وهكذا تمضي دراستكم في لبنان ريثما يفرجها الله ونعـرف كيف تكون الأحوال في تركيا.. أمامكم ثلاثة أعوام لدخول كلية الطب في استنبول، فلا تضيعوا هذا الوقت هباء فيما لا ينفعكم.. بل اذا كنتم جادين هنا في دراستكم فستكونون مبرزين حتما هناك (يدخل سليمان وعلي الى الردهة)

سليمان: ان علي يريدني أن أشاهد القطار الذي أهدته اياه صـديقتك هيلدا (تصعد شهربان لتأتي بالقطار.. سليمان يدور بعلي وهو يمـسك بيديه فتشحط قدماه على الأرض)

علي : كان جدي يدور بي فأرفع قدمي ولا تشحط.

سليمان: ماذا تعني تشحط؟

علي: تلمس الأرض هكذا (علي يريه كيف تشحط قـدماه.. تنـزل شهربان الدرج الى الردهة وتناوله القطار) هذه سكة الحديـد تـصلها ببعضها.. تصبح دائرة.. نأخذ قطع القطار.. نجمعها.. هـذه الأولـى وهذه الأخيرة وبينها عربات الركاب نضعها فـوق الـسكة.. نـشغل الزمبرك في القطعة الأولى فيسير على السكة.. أتعرف أن هذا نموذج لقطار حقيقي؟ السكة الطويلة التي تمتد من اسـتنبول الـى البحـر، والقطار حجمه مثل طول الردهة بثلاث مرات يركـب فيـه النـاس حقيقة.. أليس هذا صحيح يا ماما؟

سليمان: (الى أمه) تعلمت من علي عشر كلمات عربية جديـدة فـي خمس دقائق..

شهربان: (مازحة) ما رأيك أن تدخل المدرسة الإبتدائيـة مـع علـي فتتعلم بسرعة العربية؟

سليمان: أنا في العاشرة وعلي في السادسة فكيف نجلس على مقعـد واحد؟ ان جلست في الأمام لايرى الأولاد خلفي اللوح ولا المعلـم.. وان جلست في الخلف علي أن أحمل علي على كتفي.. استغنيت عن درس العربية!.. فقط إشتري لي عودا أعزف عليه حين تبكي بـاكيزا فأجعلها تهدأ وتنام.. الأطفال يحبون الموسيقى!..

* * *